حِكايَةُ القُرْآنِ أَقْوالَ الآخَرِينَ

(بحث دلالي)

محمد عدنان الربيعي

جامعة المصطفى العالمية - قم - ايران الاسلامية

فحوى البحث

بحث دلالي -استقرائي -تحليلي، يعرض لمسألة حكاية القرآن الكريم اقوال المتحدثين وما اذا كانت هذه الحكاية بنصها ومعناها ام بمعناها وحسب، فيثبت السيد الباحث ان بعض الايات القرآنية جاءت تعبيراً عن قول الله -تعالى -كما في سورة التوحيد.

وبعضها جاء حكاية لفعل او قول بعض الانبياء او الصالحين او الاشرار او حتى بعض الحيوانات والجمادات.

وقد خلص الى ان الحجة ثابتة للكلام الالهي بنفسه بوصفه كلام الله -سبحانه -، وهي ليست كذلك بالنسبة للكلام الالهي الحاكي عن غيره -سبحانه -.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ربّ العالمين وصلى الله على سيّدنا محمد وآله الطيّبين الطاهرين واصحابه الأخيار المنتجبين ومن تبعهم باحسان إلى قيام يوم الدين.

المقدّمة:

لا شك في أن القرآن الكريم نزل كله من عند الله تعالى على نبيه المصطفى بألفاظه ومعانيه، ولا شك أيضاً في أن النبي ﷺ بلّغ القرآن كما أنزل عليه، وهو مازال محفوظاً بالحفظ الإلهي كما أراده الله تعالى[1].

هذا ومعلوم أن بعض الآيات القرآنية جاءت تعبيراً عن قول الله تعالى كما في سورة التوحيد، وبعضها جاء حكاية لفعل أو قول بعض الأنبياء أو بعض الصالحين[2]، أو حتّى حكاية كلام بعض الطالحين والكفّار[3]، لا بل حتّى حكاية قول إبليس[4]، وهذا من الوضوح الذي لا يقبل أي ريب، وسيأتي الكلام عن أقسام الآيات القرآنية والحصر العقلي فيها فيما بعد إن شاء الله تعالى.

ولا يمكن تلقّي هذا الأمر بشكل ساذج وسطحي؛ ذلك لأنه من الصحيح أن بعض الآيات واضحة الظاهر بأنها من الله تعالى كسورة الإخلاص مثلاً، وبعضها من غيره كقول فرعون لموسى عليه السلام، أو إبليس، ولكن هناك مجموعة كبيرة من الآيات القرآنية ليست واضحة بهذا الشكل وتحتاج إلى الكثير من الجدّ والجهد والعناء والبحث التاريخي والتفسيري لكشف من هو قائلها الأصلي، كما في ﴿ قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ ﴾ [سورة النمل:

(١) لبحث التحريف ذيل طويل وأنواع كثيرة يمكن مراجعة تفاصيله في الكتب المؤلفة في ذلك، ككتاب صيانة القرآن من التحريف للشيخ محمد هادي معرفة قدس سره.

(٢) كما في قوله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾، [سورة آل عمران: ١٤٦ –١٤٧].

(٣) كما في قوله تعالى حكاية لقول فرعون عندما ادّعى الربوبية: ﴿ ...أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى ﴾، [سورة النازعات: ٢٤].

(٤) كما في قوله تعالى حكاية عن قول ذلك الرجيم لمّا امتنع عن السجود لآدم عليه السلام: ﴿ ... قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ ﴾، [سورة الأعراف: ١٢].

٣٤]، فمن هو القائل الأصلي لهذا المقطع من الآية ﴿ وَكَذَٰلِكَ يَفۡعَلُونَ ﴾، هل هو الله تعالى أم هي بلقيس؟. كذلك في قوله تعالى حكاية عن قول زليخا في سورة يوسف: ﴿ ... قَالَتِ ٱمۡرَأَتُ ٱلۡعَزِيزِ ... وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓۚ إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴾ [سورة يوسف: ٥٣]، فهل إن ﴿ إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ ﴾ هو من قول يوسف عليه السلام او من قول زليخا؟، وكثير من ألآيات الأخرى.

وما أريد أن أصل إليه هنا هو: هل يمكن لنا أن نستفيد من آيات القرآن جميعها -على الإطلاق -حكماً عقدياً وفقهياً -مثلاً -وحتى من تلك الآيات المنقولة عن الآخرين؟. او أن الآيات القرآنية تختلف في الحجّية، فيمكن أن نستفيد من بعضها ولا يمكن أن نستفيد من البعض الآخر إلا بشروط؟.

فمثلاً في الآية التي تحكي قول (بلقيس) عن الإفساد الذي يستتبع دخول الملوك القرى، هل يمكن لنا أن نعتقد بذلك ونصدّق به او لا؟. قال تعالى حكاية عن ذلك الموقف: ﴿ قَالَتۡ إِنَّ ٱلۡمُلُوكَ إِذَا دَخَلُواْ قَرۡيَةً أَفۡسَدُوهَا وَجَعَلُوٓاْ أَعِزَّةَ أَهۡلِهَآ أَذِلَّةٗۖ ... ﴾[سورة النمل: ٣٤]، فهل يمكن لنا أن نعتقد بصدق ومطابقة ذلك الحكم البلقيسي للواقع او لا؟. أم أنه كلام امرأة متأثّرة بذلك الحال الذي تمرّ به ليس إلا ولا قيمة علمية أو عملية لكلامها أصلاً؟.

وتحاول هذه الدراسة النظر في أنواع هذه الآيات وحدودها ومدياتها وكيفية تفسيرها والاستفادة منها في مختلف ميادين العلوم؛ إذ نعتقد أن هذه الآيات لها خصوصية مغفول عنها في الأبحاث التفسيرية وبالتالي فُسّرت بنفس الأسلوب المتّبع في تفسير الآيات التي قالها الله تعالى مباشرة كسورة التوحيد مثلاً، وربما أفضى ذلك إلى مجموعة من الثغرات التفسيرية والعقدية وغيرها.

وقد حكى الله تعالى أقوال الآخرين بما كانوا يعتقدون ويشعرون.

كذلك فقد أردف الله سبحانه الكثير من تلك الحكايات الحكم القاطع حولها فإما أن يكون قد أمضاها أو ردّها.

هذا وبالرغم من أن تلك الحكايات نقلٌ لكلام الآخرين وحكاية قوله إلا أن

كثيراً منها جملات خبرية يصح منها أن تطابق الواقع أو لا تطابقه، وهذا يعتمد معرفة القائل الأصلي.

لذا فحجّية تلك الأقوال وذلك الكلام منوطة بمعرفة المتكلّم الأصلي، كذلك منوطة بمعرفة القرائن الحافَّة بتلك الآية.

فالنكتة المهمّة والمسألة الأساسية والأصلية في هذا البحث هي:

ما المراد من الحكايات القرآنية، ومدى حدودها وحجّيتها وآثارها؟.

ويشتمل هذا السؤال على مجموعة من المسائل الأخرى ذات العلاقة والصلة الوثيقة، ولا يمكن لنا أن نجيب عن السؤال الأصلي إلا بعد الإجابة عن تلك الأسئلة الفرعية، والتي هي:

١. ما هي حدود أقوال الآخرين في القرآن؟.
٢. ما هي حدود حجّية تلك الأقوال؟.
٣. ما هي آثار تلك الأقوال على العقيدة والشريعة والأخلاق والعلم؟.

السابقة التاريخية:-

برغم أن لهذا الموضوع فائدة كبيرة جداً في كثير من مجالات العلم والمعرفة إلا أني عندما بدأت أبحث عن كل شاردة وواردة-مما يمكن أن يساعدني في تقصي المفردات العلمية والفنية في هذا الموضوع- لم أجد -حسب اطلاعي -أي كتاب أو بحث أو مقال يمتّ إلى موضوع البحث بصلة مباشرة، ولكني وجدتُ بعض الإشارات الغامضة والمتفرّقة المبعثرة بين كتب الفقه والأصول والتفسير، ولعل إغفال هذه المسألة المهمّة والالتفات إليها من أهم أسباب الوقوع في كثير من المشاكل المعرفية التي سنقف عليها في طيّات البحث.

ولذا فيمكن أن يُعدّ هذا البحث جديداً في بابه وموضوعه ومحتواه؛ مما يستدعي النظر إليه من هذه الزاوية المهمّة التي ستفتح الباب لكثير من الباحثين للدخول إلى مضمار هكذا بحوث، فتثمر هذه الشُجيرة ويُغنى البحث بالمناقشات العلمية الأطروحات التخصصية.

أنواع الحكايات في القرآن

بعد التأكيد على أن القرآن الكريم كلّه-بألفاظه ومعانيه -نازل من الله تعالى

على قلب الخاتم ﷺ يمكن لنا أن نقسّم الآيات القرآنية على عِدّة أنواع تحت ضابطة ومِلاك القائل أو المَحكي كلامه بالألفاظ الإلهية القرآنية، ويمكن أن نحصر تلك الأنواع حصراً منطقياً بهذا الشكل:

تلك الأقوال إمّا أن تكون لعاقل أو لغيره، فإن كانت لعاقل فإمّا أن يكون معصوماً أو لا، فإن كان معصوماً فإمّا أن يكون نبياً أو وصياً أو ولياً أو مَلَكاً، وإن كان الثاني -أي غير معصوم -فإمّا أن يكون فرداً عاديّاً -كزليخا وبلقيس -أو غير عادي كأعداء الرسالات، والكفّار، أو شيطاناً، وإن كان غير عاقل فإمّا أن يكون نباتاً أو حيواناً أو جمادا.

ويمكن لنا الادّعاء هنا أنه لا يخرج أي نوع من أنواع الآيات القرآنية من حيطة هذا الحصر.

وبعد استقراء القرآن الكريم نجد أن نماذج تلك الأنواع هي:

١. كلام الله تعالى حكاية عن نفسه، كما في سورة التوحيد وآية الكرسي.

٢. كلام الله تعالى حكاية عن الأنبياء عليهم السلام، كما في قوله تعالى حكاية عن قول موسى عليه السلام: ﴿...قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [سورة البقرة: ٥٤].

٣. كلام الله تعالى حكاية عن الملائكة، كما في قوله تعالى: ﴿...قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ ...﴾ [سورة البقرة: ٣٠].

٤. كلام الله تعالى حكاية عن الصالحين، كما في قوله تعالى: ﴿قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمَا ٱدْخُلُواْ عَلَيْهِمُ ٱلْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَٰلِبُونَ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾[سورة المائدة: ٢٣].

٥. كلام الله تعالى حكاية عن الناس العاديين، كما في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَـًٔا وَءَاتَتْ كُلَّ وَٰحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ ٱخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ [سورة يوسف: ٣١].

٦. كلام الله تعالى حكاية عن الظالمين، كما في قوله تعالى حكاية عن فرعون: ﴿فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى﴾ [سورة النازعات: ٢٤].

٧. كلام الله تعالى حكاية عن قول إبليس اللعين، كما في قوله تعالى حكاية عنه: ﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَا يَبْلَى﴾[سورة طه: ١٢٠].

٨. كلام الله تعالى حكاية عن بعض الحيوانات، كما في قوله تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [سورة النمل: ١٨].

٩. كلام الله تعالى حكاية عن الجلود يوم القيامة، كما في قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [سورة فصّلت: ٢١].

١٠. كلام الله تعالى حكاية عن السماوات والأرض، كما في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾[سورة فصّلت: ١١].

وبعد تتبع الآيات والبحث فيها لا أظن أن هناك نقلاً لكلام النباتات في القرآن الكريم.

حجّية[٥] أنواع الحكايات القرآنية: -

بعد أن تعرّفنا على أنواع الآيات القرآنية، وأن ليست جميع الآيات على مساق واحد من كونها قول الله تعالى بالأصالة -على المعنى الذي تقدّم -وأن بعضها حكاية لأقوال الأنبياء، أو الأولياء، أو الملائكة، أو حتى الناس العاديين، والكفار، والحيوانات، والنباتات، والجمادات، فهل أن الحجّية ثابتة لكل تلك الأنواع من الآيات القرآنية بشكل مطلق ومتساوٍ أم لا؟ وبعبارة أخرى: هل يمكن

(٥) المقصود من الحجّية هنا كونها تضم خصوصية الاعتماد والاستناد، فالذي يُفتي -في مجال الفقه -بعلم فإنه يصحّ منه إسناد فتواه إلى الشارع المقدّس، كما هو ثابت في علم أُصول الفقه، ويصحّ للآخرين من غير أهل الاختصاص الرجوع إليه وأخذ الحكم عنه، مجلة دراسات قرآنية، العدد الثالث، ص١٥.

لنا في مقام الاستدلال العقدي والفقهي والتفسيري أن نستدل بكل تلك الأنواع؛ فتكون دليلاً حجّة على مدّعياتنا، ويمكن لنا أن نستخرج منها ونستنبط الأحكام المختلفة، أو ليس كذلك فليس لها الحجة لتعيننا على استدلالاتنا؟.

تقسيم الآيات القرآنية بلحاظ الإمضاء وعدمه

يمكن لنا تقسيم الحكايات القرآنية على قسمة أخرى نستطيع من خلالها معرفة الحجّية التي تدعّم تلك الآيات، وفائدة تقسيم الآيات على هذه القسمة هي لكي تكون تلك الأنواع محصورة بالشكل الذي لا يستدعي تكرار الكلام أو تداخلاً في المضمون فضلاً عن اشتراك بعض تلك الأنواع بنفس المستوى من الحجّية ناسب ذلك أن نضبط أنواع الكلام تحت ضابطة أخرى، وبهذا الخصوص نقول: إن الآيات القرآنية يمكن أن تنقسم بهذا اللحاظ على أربعة أقسام هي:

الأول: الآيات القرآنية التي تحكي كلام الله تعالى نفسه، كما مرّ في النوع الأول من الأنواع المتقدّمة، وهذه الآيات حجّيتها معها ولا تحتاج إلى دليل آخر يدلّ عليها، ومن أمثلته قوله تعالى في سورة الإخلاص: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ [سورة الإخلاص: ١ - ٤].

وهذه الآيات واضحة جدّاً لا تحتاج إلى أي إيضاح في أنها كلام الله تعالى نفسه عن نفسه؛ ولذلك فهي لا تحتاج إلى أية حجّية أخرى أو إمضاء يدعمها؛ لأنها كلام الحقّ سبحانه وتعالى بخلاف ما سيأتي من أنواع.

الثاني: الحكايات الممضاة، وهي الحكايات القرآنية التي يُفهم منها الإمضاء الإلهي لمحتواها ومضمونها بأن تكون هناك إشارة وقرينة متّصلة أو منفصلة تشير إلى ذلك، وهذا النوع من الآيات له نفس الحكم المتقدّم، ومن أمثلة هذا القسم قوله تعالى حكاية عن ملكة سبأ: ﴿قَالَتْ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً ۖ وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ [سورة النمل: ٣٤]، هذا لو اعتقدنا بأن جملة ﴿وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ هو قول الله

تعالى وهو إمضاء لقول ملكة سبأ في نظرها حول إفساد الملوك القرى التي يدخلون.

الثالث: الحكايات غير الممضاة، وهي الحكايات القرآنية التي يفهم من خلال القرائن ذات الصلة أنها غير ممضاة بل مرفوضة من قبل الله تعالى، من أمثلة ذلك قوله تعالى حكاية عن إبليس: ﴿...أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾ [سورة الأعراف: ١٢]، فبالرغم من أن النار أكثر تجرّداً من الطين وبالتالي يجب أن يكون المخلوق منه أفضل من المخلوق من الطين إلا أن الحكم الإلهي صدر بأن قياس إبليس لم يكن سليماً وهذا يُفهم من سياق الآيات القَبْلية والبَعْدية لقول اللعين[٦]، وهذا القسم من الآيات لا حجّية لمضمونها الحاكي كلام أو حال قائله، فلا يمكن لنا العمل بمحتواها أو الأخذ به، فلا يمكن لنا التمسّك بهذه الآية لإثبات أن المخلوق من النار أفضل من المخلوق من الطين بشكل كلّي، وهذا واضح لا يحتاج إلى كثير بيان.

الرابع: الحكايات التي لا يُفهم منها الإمضاء أو عدمه، وهي الحكايات التي لا يُفهم منها إمضاء ومقبولية محتواها الذي نقله الله تعالى حكاية لكلام قائله، كذلك لا يُفهم منها عدم الإمضاء، فهي مجملة من حيث هذا النوع من الإمضاء.

ونقول ابتداءً: إن في مثل هذه الآيات يجب علينا البحث عن مقبوليتها أو عدمها من خلال البحث التفسيري، أو العَقدي، أو الفقهي، أو غير ذلك من البحوث المعتمدة عقلاً وشرعاً، وإلا فعلينا –حسب الأصل الأولي– التوقّف في الاستدلال بها؛ لأنها ستكون حينئذٍ من المتشابهات أو

(٦) يقول العلاّمة الشعراني «رحمة الله تعالى عليه» في تعليقته على «الوافي» في شرح هذا الحديث الشريف «إن إبليس قاس نفسه بآدم فقال: خلقتني من نار وخلقته من طين، فلو قاس الجوهر الذي خلق الله من آدم بالنار كان ذلك أكثر نوراً وضياءً من النار»، الكافي، باب البدع والرأي والمقائيس، ح١٨: «ويُعلم من أن شيئية الشيء بصورته لا بمادّته، وغلط إبليس وتوهّم أن الشرف بمادّة البدن، ولم يعلم أن الإنسان إنسان بعقله، والعقل أفضل من الوهم، وهذا الحديث من دقائق العلوم التي لم يعهد صدور مثلها عن غير أئمتنا عليهم السلام في ذلك العصر»، نقلاً عن تعليقة العلاّمة حسن زاده آملي على كتاب «آغاز وانجام»، أي: «المبدأ والمعاد» للخواجه الطوسي، ص٧٩.

المجملات أو كلام من لا حجّية له -وإن جاءت في القرآن الكريم نفسه -؛ إذ إنها لا حجّية لها في نفسها، وكذلك ليس لها من مستند يثبت لها الحجّية، وعليه سوف تكون من الظن غير المعتبر والأصل فيه عدم الحجّية كما ثبت في مبحث حجيّة الأدلة من علم الأصول، قال الشيخ الأنصاري: «التعبّد بالظن الذي لم يدلّ على التعبّد به دليل، محرّم بالأدلة الأربعة»(٧)، وقال الآخوند في الكفاية: «إن الأصل في ما لا يعلم اعتباره بالخصوص شرعاً ولا يجوز التعبّد به واقعاً، عدم حجيّته جزماً، بمعنى عدم ترتّب الآثار المرغوبة من الحجّة عليه قطعاً»(٨).

ومن أمثلة ذلك فيما نحن في صدد بيانه قوله تعالى حكاية لقصة ذي القرنين: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغۡرِبَ ٱلشَّمۡسِ وَجَدَهَا تَغۡرُبُ فِي عَيۡنٍ حَمِئَةٖ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوۡمٗاۗ قُلۡنَا يَٰذَا ٱلۡقَرۡنَيۡنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمۡ حُسۡنٗا﴾[سورة الكهف: ٨٦]، فقد أشارت الآية إلى انه وجدها، فهل أنها -الشمس -كانت حقيقةً وواقعاً كذلك، أي تغرب في عين حمئة، أم أن ذلك كان مجرّد رؤياه ووجدانه هو فقط؟.

وعليه فيمكن لنا إن دقّقنا النظر بمحتوى القرآن الكريم وكيفية فهم الآيات القرآنية بأنواعها وأقسامها المختلفة أن نستفيد الكثير من النكات التي ربّما كانت خافية على من تقدّم علينا من المفسّرين؛ حيث أخذوا جميع القرآن بسلةٍ واحدة وفهموه بدرجة واحدة من الفهم، برغم الاختلاف الذي عرفته مما تقدّم.

الأصل عند الشك في الإمضاء:

بعد أن بيّنا أنواع الحكايات وكيفية إثبات الحجّية لها، يمكن لنا أن نستخرج هنا الأصل الذي يمكن أن يكون المرجع في حال الشك في الإمضاء وعدمه، وهذا الأمر مهم في فهم الآيات القرآنية

(٧) الأنصاري، مرتضى، فرائد الأصول (الرسائل)، ج١، ص١٢٥، كذلك انظر: الشهيد الصدر، محمد باقر، دروس في علم الأصول، مؤسسة النشر الإسلامي، ج١، ص١٩٤، وج٢، ص٤٧، وقد فصّل السيد الحيدري الكلام في بيان هذا الموضوع في شرحه على الحلقة الثالثة، فراجع: شرح الحلقة الثالثة من الدليل الشرعي، ج٢، ص١٧٧ -٢١٧.

(٨) الآخوند الخراساني، محمد كاظم، كفاية الأصول، ص٢٧٩.

والاستدلال بها، فنقول:

لمّا كان للقرآن الكريم أساليبه الخاصّة في بيان الحقائق الخارجية والمواعظ الأخلاقية والمعارف الإلهيّة، فإنّ القرآن الكريم لا يمكن أن يكون مثل الكتب العلميّة المحضة حتّى يتصدّى لبيان المسائل العلميّة ومعرفة العالم فحسب، ولا أن يكون كالكتب الأخلاقيّة الّتي تكتفي بالموعظة فقط، وبنحو عامّ فإنّ القرآن لا يمكن أن يتّبع الأساليب المتداولة والمعتادة في الكتب البشريّة، فالقرآن الكريم -ولأجل تحقيق أهدافه المتطابقة والمتّحدة مع أهداف رسالة النبيّ ﷺ العالميّة -قد اختار أساليب خاصّة؛ وعليه فقد ذهب بعض الأعلام إلى أن القرآن لا يتكلّم عن واقعة ولا ينقل رأياً أو قولاً إلا ويأتي بالحكم القاطع معه، فهو إمّا أن يؤيّد ذلك القول أو يطعن فيه، فالقرآن الكريم بالنسبة إلى الأقوال والآراء الّتي ينقلها عن الآخرين لا ينقلها محض نقل فقط بل ينقلها مع الحكم القاطع عليها، من دون أن يترك ذلك النقل عارياً عن الإمضاء أو عدمه.

ومن هنا فقد ذهب آية الله الشيخ جوادي آملي (حفظه الله) إلى أن الآيات القرآنية تكون محفوفة بالحكم الإلهي بنحو صريح غالباً، وأمّا في حالة عدم التصريح بالحكم الإلهي على الأقوال المنقولة في القرآن فإن ذلك بمثابة الإمضاء لها، ولذا فقد قال في بيان ذلك: «... ولذلك فإنّه-أي القرآن -إذا نقل قولاً أو رأياً مّا ولم يتحدّث عن ردّه أو إبطاله، فإنّ عدم الردّ علامة على الإمضاء والقبول؛ كما ينقل عن الولد الصالح لآدم عليه السلام قوله إنّ الميزان في قبول العمل عند الله هو التقوى: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [سورة المائدة: ٢٧]، ولا يردّ هذا القول؛ ولذلك جاء في بعض الروايات بأنّ هذه الجملة سمّيت «قول الله»[٩]، كما وذكرت أيضاً في الكتب الفقهيّة بعنوان أنّها قول الله، وبناءً على هذه الخصوصيّة سُمّي القرآن بأنّه «قول فصل»، قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلٌ فَصْلٌ ۝١٣ وَمَا هُوَ بِٱلْهَزْلِ﴾ [سورة الطارق: ١٣-١٤]، ولكن بعد نقله لقول المنافقين،

(٩) الحويزي، عبد علي بن جمعة، تفسير نور الثقلين، ج١، ص٦١٥.

فإنّه يبطل هذا القول: ﴿يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ ۚ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾[سورة المنافقون: ٨]، فقد كان قول المنافقين يتضمّن أنّهم يحسبون أنفسهم أعزّة وأنّ المؤمنين أذلاّء، فتصدّى القرآن لقولهم بعد نقله وأبطله كما ردَّ من قَبْلُ كلامَهُم الباطل حول المحاصرة الاقتصادية للمؤمنين وعدم الإنفاق على من عند رسول الله؛ كي ينفضّوا ويتفرّقوا عن النبيّ الأكرمﷺ، فنقل كلامهم هذا وانتقده وأبطله[١٠]»[١١].

ويمكن لنا أن نجد لهذا الرأي جذوراً في كلمات السابقين، فهذا الشاطبيّ يقول في بيانه لهذا الأمر: «كل حكاية وقعت في القرآن، فلا يخلو أن يقع قبلها أو بعدها- وهو الأكثر -ردّ لها أو لا، فإن وقع ردّ فلا إشكال في بطلان ذلك المحكيّ وكذبه، وإن لم يقع معها ردّ، فذلك دليل على صحّة المحكيّ وصدقه»[١٢].

ومن أمثال ما وقع لها الردّ:

قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ﴾[سورة الأنعام: ٩١]، فأعقب بقوله: ﴿قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ﴾[سورة الأنعام: ٩١].

وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَٰمِ نَصِيبًا ..﴾، فوقع التنكيت على افتراء ما زعموا بقوله: ﴿بِزَعْمِهِمْ﴾، وبقوله: ﴿سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾[سورة الأنعام: ١٣٦].

الأسلوب الإلهي في نقل القول:

يرى كل من يطالع القرآن أن هناك الكثير من نقل الأقوال، أو نقل مراد الآخرين، أو حتى حكاية رغباتهم وخفايا ضمائرهم، وكل هذا واضح جلي لا يحتاج لبيان زائد، ولكن السؤال المهمّ الذي يجب أن يُطرح في المقام هو: ما هو الأسلوب الإلهي في نقل تلك الأقوال وتلك المرادات، هل هو على سبيل الترجمة، أو

(١٠) ناظر لقوله تعالى: ﴿هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُوا۟ عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا۟ ۗ وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ﴾، [سورة المنافقون: ٧].

(١١) جوادي آملي، عبد الله، تفسير تسنيم، ج١، ص٧٥.

(١٢) انظر: القاسمي، محمد جمال الدين، محاسن التأويل، ج١، ص٦٩.

النقل بالمعنى، أو إن الأمر أدقّ من هذا وذاك؟.

ونحن في هذا البحث نحاول أن نجيب عن هذا السؤال.

ربّما يتصوّر البعض –ولأول وهلة– أن النقل الإلهي لكلام الآخرين وحكاية ذلك الكلام والقول هو من باب النقل بالمعنى بما يتناسب مع ذوق القرآن ورفعته.

ويرى أحد المعاصرين أن النقل الإلهي لأقوال الآخرين وحكايته إياها هو من باب الترجمة لتلك الأقوال والألفاظ إلى اللغة العربية، ولمّا كان الله تعالى صادقاً فعلينا الإذعان لذلك النقل والتصديق به[١٣].

ولكننا نعتقد أن المسألة أدقّ وأعمق من ذلك، ولبيانها نقول:

لمّا كان الله تعالى مطّلعاً على الواقع بشكل كامل ومحيطاً بخفايا الأمور وأسرارها ومهيمناً على جميع اللغات والألفاظ وحقائق معانيها ومراداتها؛ فهو قادر على أن يصوغ كل معنى بأي لفظ أراد ومن أية لغة كانت؛ وذلك لأنه المهيمن على كل جزئيات ما يريد صياغته وصبّه في قالب الألفاظ، وهنا مجموعة مقدّمات يجب التنبيه لها وهي:

المقدّمة الأولى: إحاطة علمه تعالى بكل شيء دقّ أو جل، وهي مقدّمة بديهية بالنسبة لكل مسلم، وقد دلّت عليها الكثير من الأدلة العقلية[١٤] والنقلية، قال تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّهُمۡ يَثۡنُونَ صُدُورَهُمۡ لِيَسۡتَخۡفُواْ مِنۡهُۚ أَلَا حِينَ يَسۡتَغۡشُونَ ثِيَابَهُمۡ يَعۡلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعۡلِنُونَۚ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ [سورة هود: ٥]، ويتفرّع على ذلك علمه تعالى بخفايا ونوايا ومرادات كل مخلوق من مخلوقاته، أعمّ من الإنسان والحيوان وغيرهما؛ وعليه فلربما غفل إنسان –مثلاً– عن حقيقة مراده وما يتمناه لأي سبب كان، ولكن ذلك غير خافٍ ولا يخفى عن الله تعالى أبداً؛ لأنه عليم بذات القلوب،

(١٣) هذا الرأي للشيخ الدكتور محمد فاكر ميبدي أشار إليه أثناء سؤالنا لسماحته عن خصوص طبيعة الحكاية ونوع النقل الإلهي في القرآن الكريم.

(١٤) انظر: الحيدري، كمال، التوحيد بحوث في مراتبه ومعطياته، ج١، ص٢٦٥. والطباطبائي، محمد حسين، بداية الحكمة، الفصل الخامس من المرحلة الثانية عشرة، ص٢٠٣.

ويعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور.

المقدّمة الثانية: عموم قدرته تعالى، فهو القاهر فوق عباده وصاحب السلطة المطلقة عليهم جميعاً وله أن يفعل ما يشاء بما يشاء كيف يشاء، وهذه المقدّمة بديهية أيضاً لكل مسلم، وقد دلّت عليها الكثير من الأدلة[١٥].

المقدّمة الثالثة: يتفرّع على ذينك المقدّمتين مقدّمة أخرى مفادها أنه تعالى له العلم الشامل والهيمنة المطلقة على كل اللغات؛ لعلمه بكل شيء وهيمنته عليه، ومن ذلك اللغة -أي لغة كانت -التي علّمها الإنسان بعد خلقه، كما جاء ذلك في القرآن الكريم[١٦]، ومن ذلك يكون من اليسير عليه تعالى أن يُعبّر عن كل معنى بأي لغة كانت وأي لفظ أراد، فهو ليس كالمترجم العادي الذي يحاول نقل ظاهر ما يتراءى له من الكلمات والألفاظ من لغة المبدأ إلى لغة المنتهى، وليس له أي اطّلاع على حقيقة مرادات الماتن وما كان يقصده عند النطق أو الكتابة، فمثل هكذا مترجم لا علم له ولا اطّلاع على كل خفايا وخبايا مراد المتكلّم والماتن وصاحب النص -مثلاً -[١٧]، فضلًا عن عدم اطّلاعه على كل الألفاظ في كل لغة، وخصوصيات كل مفردة وكل تركيب وكل جملة بالنحو الذي تكون له الإحاطة التامّة المطلقة، وأمّا بالنسبة لله تعالى فالأمر مختلف تماماً؛ ذلك لأن له تعالى العلم المطلق بسرائر وجود كل موجود وقدرته اللامتناهية على كل شيء، كذلك إحاطته وعلمه المطلق بكل لفظ ومفردة وخصوصياتها.

ولمّا كان القرآن بألفاظه ومعانيه نازلاً من عند اللهّ تعالى، فقد انتخب في مقام التعبير عن الحقائق والمعارف والحكم

(١٥) انظر: الحيدري، كمال، التوحيد بحوث في مراتبه ومعطياته، ج١، ص٣٨٥. والطباطبائي، محمد حسين، بداية الحكمة، الفصل السادس من المرحلة الثانية عشرة، ص٢٠٨.

(١٦) في قوله تعالى: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ ۝٢ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلۡبَيَانَ﴾، [سورة الرحمن: ١ -٤].

(١٧) ولذا ترى أن الترّجمة لا يمكن لها أن تنقل مراد المتكلّم والقائل الأصلي بدقّة تامّة مهما بلغ المترّجم من براعة ومهارة في الترجمة، وللتفصيل انظر: رضائي أصفهاني، محمد علي، منطق ترجمة القرآن، ص١٢٣، كذلك: الرصافي، أنور، دراسة تطبيقية لمبدأ التكافؤ في الترجمة، ص٩٥.

أحسن كلمة وأدقّ لفظ وأحقّه وأبينه وأخصّه دلالة على تلك المعاني المطلوبة، فإنّ الكلمات قوالب ومرائي للمعاني، وأيّ خصوصيّة كانت في المعاني لا بدّ أن تدلّ عليها الألفاظ وتستكشف من إراءة الكلمات.

وهذه الأمور والخصوصيّات لا يمكن لأحد أن يراعيها حقّ الرعاية؛ فإنّه يحتاج إلى حضور جميع هذه الخصوصيّات والامتيازات اللفظيّة والمعنويّة في ذهن المتكلّم بحيث يراها في آن واحد يتكلّم فيه بكلمة، وهذا غير ممكن للبشر، وهذا حقيقة قوله تعالى: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾[18].

إذن فهو تعالى محيط باللفظ والمعنى ويصوغ الألفاظ على وفق تلك المعاني، فسواء كان التعبير عن تلك المعاني بلغة السريان أو اليونان فهو تعالى يصوغ المعنى-نفس المعنى -المراد بأي لغة أراد تعالى وعندها سوف لا يخرج عن حيطة تلك الألفاظ أي شاردة وواردة أرادها المتكلّم.

(١٨) انظر: مصطفوي، كاظم، التحقيق في كلمات القرآن الكريم، ج٩، ص٢٢٤.

تجلّي حقيقة القرآن بجلوة الألفاظ:

لمّا كانت الألفاظ موضوعة لروح المعاني وحقيقتها لا لمصاديقها الخارجية المادّية المنظورة فقط[19]، فصحّح ذلك أن يكون كل لفظ وبأي لغة كانت سواء كانت من نوع الألفاظ المعروفة في اللغات الإنسانية أم لم يكن كذلك كلغة الحيوانات مثلاً، حيث يذهب بعض العلماء إلى أن لها طريقة خاصّة في المحاورة والكلام[20]،

(١٩) وهو مذهب جمع غفير من العلماء والمفسّرين، انظر: السبزواري، عبد الأعلى، مواهب الرحمن، ج٤، ص١٩٩، والخميني، روح الله، مصباح الهداية، ص٢، وص٣٩، كذلك: آداب الصلاة، ص٣٥٩، وانظر: جوادي آملي، عبد الله، تسنيم، ج٣، ص٢٥٥، وغيرهم كثير.

(٢٠) يقول الطنطاوي: «ويعتقد بعض العلماء اليوم أنّ تبادل الخواطر هو مستوى القوّة التي تُمكّن الشخصَ من نقل آرائه إلى شخصٍ آخر بدون أيّة واسطة مادّية أو ظاهرية، فهل هذا الرأي ممكن أو محتمل الوقوع؟. وإجابةً على ذلك يقول العالم الإنجليزي «برسي»: إنّ نقل الأفكار قد يحدث في أوقات شاذّة وحالات خاصّة،=

كيف كان فإن لكل موجود من الموجودات طريقة خاصّة في الكلام وإبراز المشاعر والمعاني، فمثلاً في قوله تعالى ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴾[سورة فصّلت: ١١]، وقوله تعالى ﴿ تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾ [سورة الإسراء: ٤٤]، كيف كان ذلك القول من السماء والأرض، وكيف هو التسبيح من كل شيء؟[٢١].

لمّا كان كذلك -أي أن الألفاظ موضوعة لحقائق المعاني -جاز أن تكون تلك الآيات القرآنية الحاكية لتلك الأقوال عبارة عن حكاية ذلك المعنى الحقيقي الذي حكته تلك الألفاظ، وبالتالي ستكون- تلك الألفاظ القرآنية -حكاية وتعبيراً عن تلك الحقيقة العينية الموجودة عند الله تعالى، بقطع النظر عن لغة القائل بها والمبرز لها وبأي لغة كانت، كاللغة السريانية مثلاً أو العبرية أو أي لغة أو طريقة كانت؛ لأن الحقائق الإلهية والخزائن الربّانية لا لغة لها، وحقيقتها مختلفة تماماً عن نوع الألفاظ المعروفة، ولكنّها لمّا تنزّلت صارت كما نرى من الألفاظ، وهو تعالى قادر على إظهارها لنا بأي لغة كانت؛ لعلمه المطلق وقدرته غير المتناهية كما تقدّم، وبالتالي فأي خطأ أو اشتباه لا يمكن أن يتطرّق للقرآن الكريم وبأي صورة كانت.

إذن، لمّا تكلّم آدم عليه السلام أو نوح مثلاً -وبلغتيهما[٢٢] -كان لذلك الكلام حقيقة

=وذلك مالا يعارض فيه أحد من الباحثين، ولكنّه لا ينطبق على الحالات العامّة، وذلك التبادل قد يُرى بوضوح بين الحشرات والحيوانات اذا اقتربت حشرةً من أخرى. قال: وبذلك نعرف أنّ الحيوانات تكلّم بعضها بعضاً بنقل الخواطر، والنمل من هذا القبيل، وأنّ الإنسان مستعدّ لذلك لأنّه من جملة مواهبه، ولكن هذه الموهبة تجيء تارةً بطريق الوحي الخارق للعادة وتارةً بالتمرين»، تفسير الجواهر، ج١٣، ص١٥٨ -١٥٩.

(٢١) وللمفسّرين مباحث مفصّلة في ذلك إلا أن هذا الموضوع خارج عن محل كلامنا.

(٢٢) ورد في بعض الأحاديث أن اللغة التي كان يتكلم فيها آدم ونوح عليهما السلام هي السريانية، أي البابلية القديمة، والتي لها إلى اليوم أثر في العراق وسوريا، ففي الكافي عن أبي بصير قال: «دخلت على أبي الحسن موسى عليه السلام في السنة التي قبض فيها أبو عبد الله عليه السلام فقلت: جعلت فداك مالك ذبحت كبشاً ونحر=

ومعنى، وهذه الحقيقة والمعنى حاضرة بتمامها وكمالها عند الله تعالى، فحكى الله تعالى وأبرز تلك الحقيقة المنظورة لآدم‌ﷺ -وبكل ما قصده وأراده آدم من خصوصيات -بتلك الكلمات والألفاظ التي تكلّم بها، وتلك الحقيقة والمعاني موجودة عند الله تعالى بتمام جزئياتها وخصائصها، ولمّا أراد الله تعالى أن ينزل القرآن -الذي له حقيقة عينية عنده سبحانه -أنزل تلك الألفاظ من كلام آدم من تلك الحقيقة الإلهية باللغة العربية، وبالتالي فيمكن لنا أن نقول: إن العلاقة بين اللفظ الذي نطق به آدم‌ﷺ والألفاظ القرآنية العربية علاقة غير مباشرة، بل قد مرّت بوساطة واحدة هي حقيقة القرآن العينية التي عند الله تعالى، ومن هنا تعرف أن لو أراد الله تعالى أن ينزّل القرآن بغير اللغة العربية لما كان هناك من مانع يمنع ذلك، إلا خصوصيات تلك اللغة ومديات سعتها وقدرتها على محاكاة المعاني الإلهية.

أنواع الأسلوب الإلهي في نقل الأقوال:

يمكن لمن تتبّع الآيات القرآنية وأنواعها وكيفية صياغتها وأنواع الجمل المستخدمة فيها أن يلاحظ أن تلك الآيات على أساليب -ومقصودنا هنا هو ما عدا الآيات القرآنية التي قالها الله تعالى بالأصالة من قبيل سورة التوحيد وآية الكرسي وغيرهما -وهذه الأنواع هي:

أولاً: يمكن أن يُفهم من بعض تلك الآيات كونها حكاية المضمون لا نقل نفس الألفاظ وعينها، ويمكن أن يشهد لذلك:

١. بعض أسباب النزول، وكمثال على ذلك ما ورد عن الحارث بن المغيرة، عن أبي عبد الله‌ﷺ، قال: قلت له: إن عبد الله بن عجلان قال في مرضه الذي مات فيه إنه لا يموت، فما؟. فقال: «لا غفر الله شيئاً من ذنوبه، أين ذهب؟ إن موسى اختار سبعين

=فلان بدنة [أي ناقة]؟. فقال: يا أبا محمد إن نوحاً عليه السلام كان في السفينة وكان فيها ما شاء الله وكانت السفينة مأمورة فطافت بالبيت وهو طواف النساء وخلى سبيلها نوح‌ﷺ، فأوحى الله عز وجل إلى الجبال أني واضع سفينة نوح عبدي على جبل منكن، فتطاولت وشمخت وتواضع الجودي وهو جبل عندكم فضربت السفينة بجؤجؤها الجبل، قال: فقال نوح‌ﷺ عند ذلك: «يا ماري أتقن»، وهو بالسريانية ربّ أصلح»، الكافي، ج٢، ص١٢٤.

رجلاً من قومه، فلما أخذتهم الرجفة قال: ربّ أصحابي أصحابي، قال: إني أبدلك بهم من هو خير لكم منهم. فقال: إني عرفتهم و وجدت ريحهم، قال: فبعثهم الله له أنبياء».

ولعل كلام الإمام عليه السلام إشارة لقوله تعالى: ﴿ وَٱخۡتَارَ مُوسَىٰ قَوۡمَهُۥ سَبۡعِينَ رَجُلٗا لِّمِيقَٰتِنَاۖ فَلَمَّآ أَخَذَتۡهُمُ ٱلرَّجۡفَةُ قَالَ رَبِّ لَوۡ شِئۡتَ أَهۡلَكۡتَهُم مِّن قَبۡلُ وَإِيَّٰيَۖ أَتُهۡلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآۖ إِنۡ هِيَ إِلَّا فِتۡنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهۡدِي مَن تَشَآءُۖ أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغۡفِرۡ لَنَا وَٱرۡحَمۡنَاۖ وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡغَٰفِرِينَ ﴾ [سورة الأعراف: ١٥٥]، فيمكن أن يُفهم من هذه الرواية وأمثالها أن بعض الآيات القرآنية حكاية مضمون القول ومعناه لا اللفظ المقول نفسه.

ويمكن أن يُشكل على هذا الطريق بأنه ربما كانت نفس روايات أسباب النزول نقل بالمعنى وحكاية الآية لا العكس، وعليه فيجب التدقيق وبذل الوسع في معرفة ذلك.

٢. نفس التعابير القرآنية المستخدمة في صدر بعض الآيات، مثل «يسألونك»، كما في قوله تعالى: ﴿ يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡأَهِلَّةِ .. ﴾ [سورة البقرة: ١٨٩]، وقوله: ﴿ يَسۡـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ .. ﴾[٢٣]، وغيرها، أو «يستفتونك»، كقوله تعالى: ﴿ وَيَسۡتَفۡتُونَكَ فِي ٱلنِّسَآءِۖ قُلِ ٱللَّهُ يُفۡتِيكُمۡ فِيهِنَّ ... ﴾[٢٤]، و«يزعمون»، كما في قوله تعالى: ﴿ أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزۡعُمُونَ أَنَّهُمۡ ءَامَنُواْ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدۡ أُمِرُوٓاْ أَن يَكۡفُرُواْ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمۡ ضَلَٰلَۢا بَعِيدٗا ﴾ [سورة النساء: ٦٠]، وغيرها من أمثال هذه التعابير أو الآيات التي يمكن أن يُفهم منها النقل بالمعنى، ولا يوجد فيها ما ينصّ على النقل بالنص أو الترجمة مثلاً، خصوصاً بعد اليقين بأن لغة بعض الأنبياء والمتكلّمين في

(٢٣) [سورة البقرة: ٢١٥]، كذلك انظر: [سورة البقرة: ٢١٧]، و[سورة المائدة: ٤]، و[سورة الأعراف: ١٨٧]، و[سورة الأنفال: ١]، و[سورة الإسراء: ٨٥]، و[سورة الكهف: ٨٣]، وغيرها.

(٢٤) [سورة النساء: ١٢٧]، كذلك [سورة النساء: ١٧٦].

القرآن الكريم لم تكن اللغة العربية كما تقدّم.

هذا وربما كانت هناك بعض التعابير التي يمكن أن يستشف منها ومن خلال البحث التفسيري أنّها لم تكن قولاً بألسنة، أو كلاماً اصطلاحياً لشخص أو قوم مثلاً، وبالتالي سيخرج اللفظ المعني هنا –وفي هذه الحالة –من الحقيقة إلى المجاز أو التوسّع في الإطلاق.

يقول الشيخ مكارم شيرازي في تفسيره لقوله تعالى نقلاً عن بني إسرائيل ﴿قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا..﴾ [سورة البقرة: ٩٣]: «ليس حكاية عمّا قالوه بألسنتهم، بل –حسب الظاهر –هي تعبير عن واقع عملي لهؤلاء القوم، وكناية رائعة عن انحرافهم»[٢٥].

وقد استظهر الشيخ محمد جواد مغنية من تشابه بعض الآيات بالمضمون واختلافها بالألفاظ استظهر أن الله تعالى كان قد حكى بعض أقول الأنبياء عليهم السلام بالمعنى كما في قوله تعالى: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٥٤﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿٥٥﴾ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَخْرِجُوٓا۟ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾[سورة النمل: ٥٤ –٥٦]، فقد قال الشيخ مغنية قدس سره في ذلك: «ونظير هذه الآيات في سورة الأعراف الآية «٨٠ –٨٣»، ولا فرق إلا في بعض التعابير، ففي سورة الأعراف حكى الله سبحانه عن لوط أنه قال لقومه: ﴿أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، وحكى عنه هنا أنه قال لهم: ﴿أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ﴾ وكلاهما ذمّ وتوبيخ، وقال هناك: ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾، وقال هنا: ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾، وكل من الإسراف والجهالة تجاوز الحد... ومثله كثير في كتاب الله، فهو يحكي كلام الأنبياء وغيرهم بلفظ آخر في آية ثانية، وبثالث في آية ثالثة»[٢٦].

ويمكن أن يَرِدَ على كلام الشيخ

(٢٥) الشيرازي، ناصر مكارم، التفسير الأمثل، ج١، ص٢٠٠.

(٢٦) مغنية، محمد جواد، تفسير الكاشف، ج٦، ص٢٨.

مغنية قدس سره أنه ربما كانت تلك الآيات نقلاً لقول نبي الله لوط عليه السلام في عِدّة مواطن ومقامات لا في مقام وواقعة واحدة، وهذا يحتاج لبحث تفسيري وتاريخي دقيق للوقوف على حقيقة هذا الأمر وتعدّد أو وحدة المقام والمقال.

ثانياً: إن بعض تلك الآيات القرآنية جاء بالنقل نصّاً، ومما لاشك فيه أن هذا مشروط بمجموعة أمور يجب توافرها في تلك الألفاظ المراد نقلها بالنص، ويمكن أن يكون من تلك الشروط:

١. بلاغة نفس اللفظ الأصلي، وفصاحته.
٢. تناسبه مع أسلوب القرآن الكريم وإعجازه.

ويمكن الاستدلال على ذلك ببعض الأحاديث، وروايات أسباب النزول أيضاً[٢٧]، وعدم وجود اقتضاء التغيير، وعدم وجود المانع من النقل بالنص.

وكمثال على ذلك ما نُقل من أحاديث تذكر أن بعض الصحابة والكفّار قالوا كلاماً بعينه فنزل القرآن بنفس النظم الذي صدر عنهم، ومنها:

حديث روي عن عمر أنه قال لنساء النبي حينما تآمرن على النبي بسائق الغيرة: «عسى ربّه إن طلّقكن أن يبدله أزواجاً خيراً منكن»[٢٨].

وسورة التحريم في قوله: ﴿عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبۡدِلَهُۥٓ أَزۡوَٰجًا خَيۡرًا مِّنكُنَّ ..﴾ [سورة التحريم: ٥]، قد احتوت هذا النص.

ومنها ما روي عن زيد بن أرقم أنه

(٢٧) فعن أبي بصير، عن أبي جعفر عليه السلام، قال: «لما ناجى موسى عليه السلام ربّه أوحى إليه: أن يا موسى، قد فتنت قومك. قال: وبماذا يا ربّ؟ قال: بالسامري، صاغ لهم من حليهم عجلا. قال: يا ربّ، إن حليهم لتحتمل أن يصاغ منها غزال أو تمثال أو عجل، فكيف فتنتهم؟. قال: صاغ لهم عجلا فخار. فقال: =يا ربّ، ومن أخاره؟. قال: أنا. قال عندها موسى: إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِها مَنْ تَشاءُ وَتَهْدِي مَنْ تَشاءُ»، البرهان في تفسير القرآن، ج٢، ص٥٩٢، وربما كانت نفس هذه الآية هي ما نطق بها موسى عليه السلام.

(٢٨) مسند أحمد، ح١٥٢، وهنا يجب التدّقيق في سند الحديث وفقه متنه لبيان واقع هذا الحديث وحقيقته، ويطلق على أمثال هذا الحديث بـ(موافقات عمر) وقد أسهب السيوطي في الكلام عنها وبيانها وجمعها، فراجع الإتقان في علوم القرآن، ج١، ص١٣٧.

سمع عبد اللهّ بن سلول يقول: «لا تنفقوا على من عند رسول اللهّ حتى ينّفضوا من حوله»، ويقول: ﴿لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ..﴾ [سورة المنافقون: ٧-٨].

وآيات سورة المنافقون: ﴿هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُوا۟ عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا۟ ۗ وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٧﴾ يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ ۚ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾[٢٩]، قد احتوت هذه النصوص كما هو معلوم.

ثالثاً: وهذا هو المشكلة، وهو حكاية أقوال غير العرب أو الحيوانات، والجمادات.

ولعل الأقرب إلى الصواب هو الحكاية بالمعنى، أو ما اخترناه فيما تقدّم من أن الألفاظ موضوعة لروح المعاني وحقائقها وليست للوجودات الذهنية أو الخارجية، وبالتالي فتلك الآيات ما هي إلا تجلّ وظهور لتلك الحقيقة الإلهية النازلة من الله تعالى بهذه الألفاظ[٣٠]، غاية الأمر تناسبت مع سبب كان قد وقع فصار بحسب الظاهر علّة وسبباً لنزول الآية، ومعلوم أن المورد لا يخصّص الوارد، وقد مرّ الكلام عن هذا.

آثار وفوائد البحث في الحكايات:

قلنا سابقاً إنه يمكن تقسيم آيات القرآن الكريم على عِدّة أنواع تحت ملاك القائل أو المَحكي كلامه بالألفاظ الإلهية القرآنية.

وأن الآيات التي قالها من لا يُعتَقد بحجّية كلامه لا يمكن أن يُستند إليها في الاستدلال بها على شيء أبداً إلا إذا استنتجنا الإمضاء الإلهي لمضمونها من

(٢٩) بحار الأنوار، ج٩٠، ص٨١.

(٣٠) قال العلّامة الطباطبائي: «قوله تعالى: ﴿حمٓ ﴿١﴾ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٣﴾ وَإِنَّهُۥ فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ لَدَيْنَا لَعَلِىٌّ حَكِيمٌ﴾، فإنه ظاهر في أن هناك كتابا مبينا عرض عليه جعله مقروءاً عربيا، وإنما ألبس لباس القراءة والعربية ليعقله الناس وإلا فإنه -وهو في أم الكتاب -عند الله، علي لا تصعد إليه العقول، حكيم لا يوجد فيه فصل وفصل. وفي الآية تعريف للكتاب المبين وأنه أصل القرآن العربي المبين»، الميزان، ج٢، ص١٨.

خلال البحوث المعتبرة شرعاً، وقلنا أيضاً أن بعض العلماء ذهب إلى أن كل آية –من هذا القبيل –إذا لم يسبقها أو يعقبها ما يردّها فهي ممضاة يمكن الاستشهاد بها.

وإن في القرآن الكريم الكثير الكثير من الآيات الكريمة الحاكية عن حال ومقال الآخرين، والتي يمكن لنا –إن كشفنا الحكم الحكيم في مفادها ومدى مقبولية مدلولها الذي أراده القائل والذي حكاه الله تعالى عنه –أن نفهم وننتفع منها في كثير من مجالات المعرفة العقائدية، والشرعية، والأخلاقية، والعلوم البشرية.

ويمكن لنا أن نختزل كل ما يمكن أن يقال هنا بعدّة نقاط فنقول:

أولاً: إن من مجموع القرآن لا يوجد كثير من الآيات المحكية –ونستثني من ذلك ما نُقل عن الأنبياء –لها علاقة بالشأن العقائدي، اللهم إلا بعض الآيات التي ترتبط بمسائل عَقَدية جزئية، وأما في الأصول العقدية الكلّية فلا يوجد إلا نزر يسير منقول عن الأنبياء عليهم السلام وبعض الصالحين مشفوع –في كل مرّة –بالإمضاء الإلهي، فضلاً عن تأييد العقل المُسبق.

ثانياً: تقسيم الآيات القرآنية على أقسام عِدّة أعلاها دلالة وكاشفيةً عن الواقع هي تلك التي قالها الله تعالى، واللافت ان أغلب الآيات التي وردت في خصوص الولاية، والخلافة، وصفات المُستخلَف، وكذلك الذات الإلهية وصفاتها وأسمائها جاءت محكية من الله تعالى، وهذا يكشف عن مدى أهميّة وخطر وعِظم تلك الأمور.

ثالثاً: إن لآيات الأحكام حظوة كبيرة في كتب الفقه وفقه القرآن، ولكنها تعرضّت لكثير من التشكيك والجدال والسجال في كثير من جهات البحث، فمن مشكّك بها لأن أكثرها إمّا مرتبط بالأمم السابقة، أو منقول حكاية عن قول أحد أفراد تلك الأمم، أو أنها جاءت في سياق قصصي المقصود منه العبرة والعظة ليس أكثر؛ فلا يمكن الركون إليها في استنباط الحكم الشرعي[٣١].

رابعاً: إن الاستفادة من أقول

(٣١) وللتفصيل في ذلك يمكن الرجوع إلى كتاب «فقه پژوهي قرآن» (دراسة في فقه القرآن)، للسيد محمد علي ايازي فقد فصّا كل هذه الإشكالات ومناقشتها.

الآخرين، أو الآيات القرآنية الحاكية لأقوال الآخرين كثير جدّاً في المجال الأخلاقي، ولعلّه فاق جميع الأبواب من العَقَديَّة والفقهية والعلمية، والأمر هنا سهل؛ لإمكان الاستعانة بالعقل لفهم الإمضاء الإلهي من عدمه؛ فإن الأخلاق ونصوصها لا تخرج عن حيطة العقل في أغلب مواردها، وبالتالي لا يلزم كثيراً الرجوع إلى النص الديني في ذلك إلا لبيان بعض اللوازم والأجر والثواب المتعلق بغيب هذا العالم أو العالم الآخر والذي لا يمكن للعقل التدخل فيه إطلاقاً.

خامساً: يمكن استنتاج قاعدة مهمّة في طريقة حل التعارض الظاهري بين العلم والنص الديني؛ وذلك من خلال نسبة المُعطى العلمي الظاهر من الآية التي نُقلت وحكت كلام غير الله تعالى إلى وجهة نظر ذلك المتحدّث لا إلى الله تعالى، بمعنى أن هذا النوع من الآيات يحيي وجهة نظر ذلك المتحدّث المنقول كلامه بالآية لا أنها كاشفة عن علم الله تعالى، إلا إذا علمنا على وجه القطع واليقين بأن الله تعالى أمضاها مطلقاً، وهذا بخلاف الآيات التي نطق بها الله تعالى والتي لا يمكن وبأي حال من الأحوال أن تتعارض مع معطيات العلم القطعية.

المصادر

١. أبو زيد، نصر حامد، نقد الخطاب الديني، المركز الثقافي العربي، بيروت –لبنان، ط٣ –٢٠٠٧م.

٢. جعفري، محمد، العقل والدين، مركز الحضارة لتنمية الفكر الإسلامي، بيروت –لبنان، ط١ –٢٠١٠م.

٣. جوادي آملي، عبد الله، تسنيم في تفسير القرآن، تعريب: عبد المطلب رضا، دار الإسراء للنشر، إيران –قم، ط١ –١٤٣١هـ. ق.

٤. الحجازي، إبراهيم، آيات العقائد، تحقيق وتصحيح: رامين الگُلمكاني، انتشارات قدس رضوي، مشهد – إيران، ط١ –١٤٢٤هـ.

٥. الحسن، طلال، المنهج التفسيري عند العلامة الحيدري، دار فراقد، قم – إيران، ط١ –٢٠١٠م.

٦. الحيدري، كمال، التوحيد بحوث في مراتبه ومعطياته، تقرير: جواد علي

كسّار، دار فراقد، قم -إيران، ط٥- ٢٠٠٦م.
٧. الحيدري، كمال، منطق فهم القرآن، بقلم: الدكتور طلال الحسن، دار فراقد، قم -إيران، ط١ -٢٠١٢م.
٨. الخميني، روح الله، آداب الصلاة، مؤسسة تنظيم ونشر تراث الإمام الخميني، طهران -إيران، ط٥- ٢٠٠٣م.
٩. الخوئي، أبو القاسم، البيان في تفسير القرآن، مؤسسة إحياء تراث الإمام الخوئي، قم -إيران، ط بدون رقم- بدون تاريخ.
١٠. الراغب الأصفهاني، حسين بن محمد، المفردات في غريب القرآن، مطبعة الميمنية، القاهرة -مصر، ط٢-١٣٢٤ هـ. ق.
١١. الربيعي، محمد، دعوى بشرية القرآن، مؤسسة الهدف، قم -إيران، ط١- ٢٠١١م.
١٢. رضائي أصفهاني، محمد علي، در آمدي بر تفسير علمي قرآن كريم، انتشارات اسوة، قم -إيران، ط٢- ١٣٨٣ش.
١٣. رضائي أصفهاني، محمد علي، منطق ترجمة قرآن، انتشارات مركز جهاني علوم إسلامي، قم -إيران، ط١- ١٣٨٦ش.
١٤. رضائي أصفهاني، محمد علي، منطق تفسير قرآن، انتشارات جامعة المصطفى العالمية، قم -إيران، ط بدون -١٣٨٧ش.
١٥. ساجدي، أبو الفضل، زبان دين وقرآن، مركز انتشارات مؤسسة آموزشي وبژوهشى إمام خميني، قم- إيران، ط٢، ١٣٨٥ هـ. ش.
١٦. سعيدي روشن، محمد باقر، تحليل زبان قرآن وروش شناسي فهم آن، ساؤمان انتشارات پژوهشگاه فرهنگ وانديشه اسلامي، قم - إيران، ط٣ -١٣٨٧ ش.
١٧. الشيرازي، ناصر مكارم، الأخلاق في القرآن، دار الأميرة، قم -إيران، ط٣-١٤٢٨هـ.
١٨. الشيرازي، ناصر مكارم، تفسير الأمثل، دار الأميرة، بيروت -لبنان،

ط٢ -٢٠٠٩م.
١٩. الطباطبائي، محمد حسين، الميزان في تفسير القرآن، الاعلمي، بيروت - لبنان، ط١ -١٩٩٧م.
٢٠. الطباطبائي، محمد حسين، بداية الحكمة، تصحيح: عباس علي الزارعي السبزواري، مؤسسة النشر الإسلامي، قم -إيران، ط٢٣- ١٤٢٧هـ.
٢١. الطبرسي، أبو علي الفضل بن حسن، مجمع البيان، حققه وعلق عليه: لجنة من العلماء والمحققين، قدم له: السيد محسن الأمين العاملي، مؤسسة الاعلمي، بيروت -لبنان، ط١- ١٩٩٥م.
٢٢. الطريحي، فخر الدين، مجمع البحرين، تحقيق: احمد الحسيني، مكتب نشر الثقافة الإسلامية، قم -إيران، ط٢- ١٤٠٨هـ. ق.
٢٣. الكليني، محمد بن يعقوب، أصول الكافي، مؤسسة الاعلمي، بيروت- لبنان، ط٣ -٢٠٠٥م.
٢٤. المجلسي، محمد باقر، بحار الأنوار، دار الأميرة، بيروت -لبنان، ط١- ٢٠٠٧م.
٢٥. مصباح اليزدي، محمد تقي، مفاهيم القرآن، دار الولاء، بيروت -لبنان، ط١ -٢٠٠٧م.
٢٦. مصطفوي، كاظم، التحقيق في كلمات القرآن الكريم، دار الكتب العلمية، بيروت -لبنان، ط٣ -٢٠٠٩م.
٢٧. مجلة دراسات قرآنية، العدد الثالث، السنة الأولى، مؤسسة العهد الصادق/ فرع قم، ٢٠٠٩م.